

أبدًا حسنًا إلا بأن يعرف أهلها ، وحتى تتصل بمستحقها وبمعادتها واللائقين بها . وفي قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها سقوط نصف الملحة ، وذهاب شطر النادرة . ولو أن رجلاً لَزَقَ نادرة بأبي الحارث جمين ، والهيثم بن مطهر ، وبمزيد ، وابن أحمر^(١) ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون . ولو ولد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها ، ثم أضافها إلى صالح بن حنين ، وإلى ابن النواء وإلى بعض البغضاء ، لعادت باردة ولصارت فاترة فإن الفاتر شر من البارد .

وكما أنك لو ولدت كلامًا في الزهد وموعظة للناس ثم قلت : هذا من كلام بكر بن عبدالله المزني . وعامر بن عبد قيس العنبري ، ومؤرق العجلي ، ويزيد الرقاشي^(٢) لتضاعف حسنه ، ولا حدث له ذلك النسب نصارة ورفعة لم تكن له ولو قلت : قالها أبو كعب الصوفي أو عبد المؤمن ، أو أبو النواس الشاعر أو حسين الخليل^(٣) لما كان لها إلا ما لها في نفسها ، وبالحرى أن تغلط في مقدارها ، فتبخس من حقها .

وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها . وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها ، إما بالخوف منهم ، وإما بالإكرام لهم ، ولولا أنك سألتني هذا الكتاب لما تكلفته^(٤) ولما وضعت كلامي موضع الضيم والنعمة ، فإن كانت لائمة أو عجز فعليك ، وإن كان عذر فلي دونك .

* رسالة سهل بن هارون^(٥)

أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير . وجعلكم من أهله . قال الأحنف بن قيس^(٦) : يا معشر بني تميم ! لا تسرعوا إلى الفتنة . فإن أسرع الناس إلى القتال ، أقلهم حياء من الفرار . وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عيابًا : فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب . ومن أعيب العيب أن تعيب ما ليس بعيب . وقبيح أن تنهى عن مرشد^(٧) وتغري بمشفق^(٨) . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم ، وتقويمكم وإلّا إصلاح فسادكم وإبقاء النعمة عليكم ، ولن

-
- (١) الأربعة من أصحاب النواذر والفاكهة والمزاح .
 (٢) الثلاثة من الزهاد .
 (٣) الأربعة من المجان .
 (٤) تكلفته أى ألغته على مشقه .
 (٥) كتبها إلى محمد بن راهب بن أبي عمه من آل راهب حين دعوا مذهبه في البخل وجعلوا كلامه في الكذب أى التي يكتبها في موضوع البخل ومدحه . ويمكن لنا اعتبار هذه الرسالة هي الفصل الأول من البخل .
 (٦) اسمه الضحّاك أو صخر . وكان يضرب به المثل في الحلم والسيادة . وفد على عمر بن الخطاب في وفد من قومه . وشهد صفين ومات معمرًا في ٦٩ هـ .
 (٧) عن مرشد أى عن اتباع مرشد .
 (٨) أى تخوض الناس على المشفق الرحيم .

أخطأنا سبيل إرشادكم ، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم .

ثم قد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم ، وشهرنا في الآفاق دونكم . فما كان أحقكم - في تقديم حرمتنا بكم ^(١) - أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم وتنبهنا على ما أغفلنا من واجب حقكم ، فلا العذر المبسوط بلغتم ، ولا بواجب الحرمة قتم . ولو كان ذكر العيوب برأ وفضلاً لرأينا في أنفسنا عن ذلك شغلاً . وأن من أعظم الشقوة ، وأبعد من السعاة ، ألا يزال يتذكر زلل المعلمين ، ويتناسى سوء استماع المتعلمين ، ويستعظم غلط العاذلين ، ولا يحفل بتعمد المعذولين ^(٢) .

عبتومنى بقولى لخادمى : أجيد عجنه خميراً ، كما أجدته فطيراً ^(٣) ليكون أطيب لطمعه ، وأزيد في ريعه ^(٤) ، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ورحمه لأهله : املكوا العجين ، فإنه أحد الربيعين .

وعبتم علىّ قولى : من لم يتعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص ، لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالى . فلقد أتيت من ماء الوضوء بكلية يدل حجمها على مبلغ الكفاية ، وأتشف ^(٥) من الكفاية . فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء ، وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء ^(٦) وجدت في الأعضاء فضلاً على الماء ^(٧) ، فعلمت أن لو كنت مكنت الاقتصاد في أوائله ^(٨) ورغبت عن التهاون به في ابتدائه ، لخرج آخره على كفاية أوله ، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر . فعبتمونى بذلك وشنعتموه بمجهدكم ، وقبحتموه . وقد قال الحسن عند ذكر السرف : إنه ليكون في الماعونين الماء والكلاً ، فلم يرض بذكر الماء ، حتى أردفه بالكلاً ^(٩) .

وعبتمونى حين ختمت على سل ^(١٠) عظيم ، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ، ومن رطبة غريبة . على عبد منهم ، وصبي جشع ، وأمة لكعاء ، وزوجة خرقاء ^(١١) . وليس من أصل الأدب ، ولا في ترتيب الحكم ، ولا في عادات القادة ، ولا في تدبير السادة أن يستوى في نفيس المأكول ، وغريب المشروب وثمان الملبوس ، وخطير المركوب ، والناعم من كل فن واللباب من

(٥) أشف : أزيد .

(٦) توفيتها حقها في الفصل .

(٧) أى بقى في الأعضاء ما لم يعمه الماء .

(٨) أوائل الوضوء .

(٩) يعنى أن الحسن البصرى رضى الله عنه لن يرض بذكر الماء وحده فأضاف إليه الكلا وهو أقل قيمة .

(١٠) سلة عظيمة .

(١١) أى أنه ختم على سلة الفاكهة خشية أن يأكل منها عبد منهم . أو صم . جشع . أو أمه لكعاء . أو زوجة خرقاء .

كل شكل - التابع والمتبوع ، والسيد والمسود ، كما لا تستوى مواضعهم في المجلس ومواقع أسمائهم في العنوانات وما يستقبلون به من التحيات . وكيف ، وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر ، ولا يكثرثون له اكتراث العارف ؟ من شاء أطعم كلبه الدجاج المسمن وأعلف حماره السمسم المقشر^(١) .

فعتبتموني بالخنم وقد ختم بعض الأئمة على مزود سوق^(٢) ، وختم على كيس فارغ ، وقال : طينة خير من ظنة فأمسكتم عن ختم على لا شيء ، وعبتم من ختم على شيء .

وعبتموني حين قلت للغلام : إذا زدت في المرق فزد في الانضاج ، لتجمع بين التأدم^(٣) باللحم والمرق ، ولتجمع مع الارتفاق^(٤) بالمرق الطيب . وقد قال النبي ﷺ : « إذا طبختم لحماً فزيدوا في الماء ، فإن لم يصب أحدكم لحماً أصاب مرقاً »^(٥) .

وعبتموني بخصف النعال^(٦) وبتصدير^(٧) القميص . وحين زعمت أن المخصوصة من النعل أبقي وأوطأ^(٨) وأوقى وأننى للكبير وأشبه بالنسك ، وأن الترقيع من الحزم ، وأن الاجتماع مع الحفظ^(٩) ، وأن التفرق مع التضييع^(١٠) وقد كان النبي ﷺ يخصف نعله ويرقع ثوبه ، ولقد لفقت^(١١) سعدى انة عوف ازار طلحة ، وهو جواد قریش ، وهو طلحة الفياض . وكان في ثوب عمر رفاع آدم^(١٢) . وقالوا لا جديد لمن لم يلبس الخلق^(١٣) .

وبعث زياد رجلاً يرتاد له محدثاً^(١٤) واشترط على الرائد أن يكون عاقلاً مسدداً ، فأتاه به موافقاً ، فقال : أكنت ذا معرفة به ؟ قال : لا ! ولا رأيته قبل ساعته ! قال : أفناقلته^(١٥) الكلام ، وفناخته الأمور ، قبل أن توصله إلى ؟ قال : لا ! قال : فلم اخترته على جميع من رأيته ؟ قال : يومنا يوم قائظ ، ولم أزل أتعرف عقول الناس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم ورأيت ثياب الناس جددا وثيابه لبسا^(١٦) ، فظننت به الحزم . وقد علمنا أن الجديد في غير

(١) أى أن لم تأخذوا بما أقوله لكم فأفعلوا ما شئتم .

(٢) المزود هو ما يوضع فيه الزاد ، والسوق هو الدقيق الناعم .

(٣) التأدم بالشئ أى اتخذه أداماً والإقام ما يستمر به الحيز .

(٤) الارتفاق : يعنى الانضاج به . والطيب : الطلذذ : أى تجمع اللذة مع الانضاج .

(٥) أخرجه أحمد ٣٧٧/٣ وصححه الألبانى بلفظ « إذا طبختم فأكثروا المرق فإنه أوسع وأبلغ للجيران » .

(٦) خصف النعال بإصلاحها بالترقيع والحياطة .

(٧) أى يجعل بطانة لصدر لبعده .

(٨) أوطأ بمعنى ألين .

(٩) أى أن اجتماع المطرق يكون مع حفظه .

(١٠) عكس الاجتماع مع الحفظ .

(١١) ضمت شقة إلى أخرى فحاطبتها .

(١٢) جمع أديم وهو الجلد المدبوغ .

(١٣) أى الثوب البالى .

(١٤) نديماً .

(١٥) المناقلة هى مبادلة الحديث .

(١٦) جمع ليس وهو الثوب الذى بلى من كثرة اللبس .

موضعه دون الخلق . وقد جعل الله عز وجل لك قدراً وبوأ^(١) له موضعاً . كما جعل لكل دهر رجلاً ، ولك مقام مقالاً . وقد أحيا الله بالسهم وأمات بالغداء وأغص^(٢) بالماء ، وقتل بالدواء . فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الاسراف التكرار . وقد زعموا^(٣) أن الإصلاح أحد الكسبين كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين . وقد جبر الاحنف يد عتر ، وأمر بذلك النعمان . وقال عمر : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة . وقال رجل لبعض السادة : أهدي إليك دجاجة ؟ قال : إن كان لابد فاجعلها بياضة ! وعد أبو الدرداء العرقا حُرَّ البهيمة^(٤)

وعبتموني حين قلت : لا يغترن أحد - بطول عمره وتقوس ظهره ، ورقة عظمه ، ووهن قوته - أن يرى أكرومه^(٥) ، ولا يجرحه^(٦) ذلك إلى اخراج ماله من يديه وتحويله إلى ملك غيره ، وإلى تحكيم السرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه ، فلعله أن يكون معمرًا وهو لا يدري . وممدودًا له في السن وهو لا يشعر . ولعله أن يرزق الولد على اليأس أو يحدث عليه بعض مخبات الدهور مما لا يخطر على البال ولا تدركه العقول ، فيسترده ممن لا يرده ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه ، أضعف ما كان عن الطلب^(٧) ، فعبتموني بذلك . وقال عمرو بن العاص : « أعمل لديك عمل من يعيش أبدًا ، وأعمل لآخرتك عمل من يموت غدًا » .

وعبتموني حين زعمت أن التبذير - إلى مال القمار ومال الميراث ، وإلى مال الالتقاط^(٨) وحباء^(٩) الملوك - أسرع ، وأن الحفظ إلى المال المكتسب ، والغنى المحتلب ، وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدين واهتضام العرض^(١٠) ونصب البدن واهتمام القلب - أسرع . وأن مَنْ لم يحسب ذهاب نفقته . لم يحسب دخله ، ومن لم يحسب الدخل ، فقد أضاع الأصل ، وأن مَنْ لم يعرف للغنى قدره فقد أذن بالفقر^(١١) وطاب نفسًا بالذل .

وزعمت أن كسب الحلال مضمن بالانفاق في الحلال^(١٢) ، وأن الحثيث يتزع^(١٣) إلى الحثيث ، وأن الطيب يدعو إلى الطيب وأن الانفاق في الهوى حجاب دون الحقوق^(١٤) . فعبتم

(١) بوأ : بمعنى هيا . (٢) الفصة : ما يعرض الخلق من طعام أو شارب .

(٣) زعموا بمعنى قالوا ، والزعم أكثر ما يستعمل فيما كان باطلاً أو فيه ارتياب .

(٤) أبو الدرداء صحابي جليل اسمه عويم بن مالك الخزرجي ، كان قبل إسلامه تاجرًا ، وكان زاهدًا شجاعًا - توفي في الشام سنة ٣٢ هـ . والعراق جمع عرق وهو العظام عليها القليل من اللحم ، والحُر من كل شيء أحسنه .

(٥) أى يظهر كرمه والمعنى الإجمالى : لا ينبغي أن تدفع مظاهر الشيخوخة إلى إظهار الكرم بتحويل المال إلى الغير .

(٦) يلجته ويلفحه . (٧) إلحاق الأذى به .

(٨) وهو في حال يكون فيها ضيقًا عن طلب الرزق . (٩) علم رضى به .

(١٠) أى أن كسب الحلال ملزم ان يتفق في الحلال . (١١) يعنى أن كسب الحلال ملزم ان يتفق في الحلال .

(١٢) مال الالتقاط ما يلتقط من الأرض . (١٣) يتزع بمعنى يميل .

(١٤) حياء : عطاء . (١٥) حياء : عطاء .

(١٦) يعنى أن انفاق المال في الأهواء الفاسدة يجلب عن أداء الحقوق .

على هذا القول . وقد قال معاوية : لم أر تبيذراً قط إلا وإلى جانبه حق مضيع . وقد قال الحسن : إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله . فانظروا في أى شيء ينفقه ، فإن الخبيث ينفق في السرف .

وقلت لكم بالشفقة منى عليكم ، ويحسن النظر لكم . وبحفظكم لآبائكم^(١) ولما يجب في جواركم^(٢) وفي مماحتكم^(٣) وملابستكم^(٤) : أنتم في دار الآفات ، والجوائح^(٥) غير مأمونات فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع إلى بقية^(٦) فأحرزوا النعمة باختلاف الأمكنة^(٧) . فإن البلية لا تجرى في الجميع إلا مع موت الجميع ، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه في العبد والأمة ، وفي ملك الشاة والبعر ، وفي الشيء الحقير اليسير : فرقوا بين المنايا^(٨) ، واجعلوا الرأس رأسين . وقال ابن سيرين لبعض البحرين^(٩) : كيف تصنعون بأموالكم ؟ قال : نفرقها في السفن ، فإن عطب بعض سلم بعض ، ولولا أن السلامة أكثر لما حملنا خزائننا في البحر . قال ابن سيرين : تحسبها خرقاء وهى صناع^(١٠) .

وعبتموني أن قلت لكم عند إشفاقي عليكم : إن للغنى سكراً ، وإن للمال لتزوة فمن لم يحفظ الغنى من سكر الغنى فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط^(١١) المال بخوف الفقر فقد أهمله ، فعبتموني بذلك . وقال زيد بن جبلة^(١٢) : ليس أحد أفقر من غنى آمن الفقر ، وسكر الغنى أشد من سكر الخمر . وقلتم : قد لزم الحث على الحقوق ، والتزهيد في الفضول^(١٣) حتى صار يستعمل ذلك في أشعاره بعد رسالته ، وفي خطبه بعد سائر كلامه ، فمن ذلك قوله في يحيى بن خالد :

عدوُّ تلاد^(١٤) المال فيما ينوبه

منوع إذا ما منعه كان أحزما

-
- (١) بما يجب من رعايتكم لحقوقهم وأموالهم .
 (٢) مجاورتكم للناس .
 (٣) مؤاكتكم للناس .
 (٤) مخالطتكم .
 (٥) البجاعة .
 (٦) محمد بن سيرين . مفسر الأحلام الشهير واسمه أبو بكر محمد بن سيرين . وكان من أفاضل التابعين توفي سنة ١١٠ هـ .
 (٧) المرأة الصانع هى الماهرة فيما تؤديه من عمل يديها . والخرقاء ضدها - وهو مثل يضرب لمن تظن به الجهل وهو فطن يفظ .
 (٨) يرتبط بمعنى يرتبط .
 (٩) زيد بن جبلة من زعماء الوفود عند عمر بن الخطاب وكان فصيحاً بليغاً عرف بالحكمة وله كلام جميل بالبيان والتبيين للجاحظ .
 (١٠) الفضول جمع فضل . وهو هنا ما زاد على الحاجات وضرورات العيش .
 (١١) التالذ والتلذد كل مال قديم - وينوبه : ينزل به من المهات والحوادث . أى أنه عند ذلك يعتمد إلى ماله فيهلكه كأنه أعدوه ومنوع أى كثير المنع لئله والظن به . وقوله إذا ما منعه . أى إذا كان المنع والبخل أكيس وأعقل .

وعبتموني حين زعمت أن أقدم المال على العلم ، لأن المال به يغاث العالم ، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم ، وأن الأصل أحق بالتفضيل من الفرع ^(١) وأنى قلت : إن كنا نستبين الأمور بالنفوس ^(٢) ، فإننا بالكفاية ^(٣) نستبين ، وبالحلة ^(٤) نعى ^(٥) .

وقلت : وكيف تقول هذا ، وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدم الأدباء : العلماء أفضل أم الأغنياء ؟ قال : العلماء ! قيل . فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء ، أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى ، ولجهل الأغنياء بفضل العلم !

فقلت : حالها هي القاضية بينها . وكيف يستوى شيء ترى حاجة الجميع إليه ، وشيء يغني بعضهم فيه عن بعض ؟

وعبتموني حين قلت : إن فضل الغنى على الفقر إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار إن احتيج إليها استعملت وإن استغنى عنها كانت عدة ^(٦) . وقد قال الحصين بن المنذر ^(٧) : وددت أن لي مثل أحد ذهباً لا أنفع منه شيء ! قيل : فما ينفعك من ذلك ؟ قال : لكثرة من يخدمني عليه لأن لمال مخدوم . وقال أيضاً : عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه إلا أنه أعز في قلبك ، وذل في قلب غيرك ، لكان الحظ فيه جسيماً ، والنفع فيه عظيماً .

ولسنا ندع سيرة الأنبياء ، وتعليم الخلفاء ، وتأديب الحكماء ، لأصحاب الأهواء . كان رسول الله ﷺ يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراء باتخاذ الدجاج : وقال : « درهمك لمعاشك ، ودينك لمعادك » . فقسموا الأمور كلها على الدين والدنيا ، ثم جعلوا أحد قسمي الجميع : الدرهم . وقال أبو بكر الصديق رحمة الله عليه ورضوانه : إني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في اليوم الواحد . وكانوا ^(٨) ييغضون أهل البيت للحمين ^(٩) وكان هشام ^(١٠) يقول : ضع الدرهم على الدرهم يكونان مالاً . ونهى أبو الأسود الدؤلي ، وكان حكيماً أديباً وداهياً أريباً ، عن جودكم هذا المولد ، وعن كرمكم هذا المستحدث ، فقال لابنه : إذا بسط الله لك في

(١) المراد بالأصل : المال ، وبالفرع العلم .

(٢) أى نظهم الأمور مستعينين بالنفوس .

(٣) بجهل : يعنى أن الإنسان - وإن كان يدرك بالنفس - يكون أقدر على التظهم

(٤) معدة للاستعمال .

(٥) سمه أبو ساسان حصين بن المنذر وهو من التابعين .

(٦) الكثيرين من أكل اللحم .

(٧) هشام بن عبد الملك بن مروان ، من ملوك الدولة الأموية في الشام توفي ١٢٥ هـ - أما الأسود الدؤلي فهو ظالم بن عمرو .

يجمع المؤرخون على أنه أول من وضع علم النحو بأمر من علي بن أبي طالب . شهد صفين مع علي . وولاه ابن عباس

البصرة . ومات بها سنة ٦٩ هـ .

والمولد أى المستحدث .

الرزق فابسط ، وإذا قبض فاقبض ، ولا تجاود^(١) الله فإن الله أجود منك . وتلقط أبو الدرداء حبات حنطة ، فتهاه بعض المسرفين ، فقال : ليهن ابن العبية^(٢) ! إن من فقه المرء رقه في معيشته .

فلستم على تردون . ولا رأي تفندون ، فقدموا النظر قبل العزم ، وتذكروا ما عليكم قبل أن تذكروا ما لكم . والسلام^(٣) .

* الكلام على أهل خراسان^(٤)

نبدأ بأهل خراسان ، لإكثار الناس في أهل خراسان ، ونخص بذلك أهل مرو ، بقدر ما خصوا به .

قال أصحابنا : يقول المروزي^(٥) للزائر إذا أتاه . وللجلس إذا طال جلوسه : تغديت اليوم ؟ فإن قال : نعم ! قال : لولا أنك تغديت لغديتك بغداء طيب ، وإن قال : لا ! قال : لو كنت تغديت لسقيتك خمسة أقداح ! فلا بصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير^(٦) .

* ما وقع للجاحظ في منزل ابن أبي كريمة

وكنت في منزل ابن أبي كريمة - وأصله من رمو فرآني أتوضأ من كوز خزف ، فقال : سبحان الله ! تتوضأ بالعذاب والبئر لك معرضة^(٧) ؟ ! قلت : ليس بعذب ، إنما هو من ماء البئر . قال : ففسد علينا كوزنا بالملوحة ! فلم أدر كيف أتخلص منه !

* حديث ابن نهيو

وحدثني عمرو بن نهيو قال : تغديت يوماً عند الكندي فدخل غليه رجل كان له جاراً ، وكان من أبخل خلق الله - قال : فاستحييت منه ، فقلت : سبحان الله ! لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل ! قال : قد والله فعلت ! فقال الكندي : ما بعد الله شيء ! قال عمرو : فكفنه والله

(١) تجاود الله بمعنى لا تنافسه في الجود .

(٢) ليهن : دعاء عليه بالهوان . والعبية نسبة إلى قبيلة عيس . وأبوها عيس بن بغيس بن ريث ويقال أنها من أميرات البيان .

(٣) إلى هنا تنتهي هذه الرسالة . ويبدأ الجاحظ في قصة جديدة من قصص البخلاء .

(٤) خراسان أقدم من بلاد فارس . وقد خصهم الناس بكثرة الحديث عن بخلهم ونواذرهم المشهورة في البخل وبالذات عن أهل مرو الفارسية . وفي هذا الباب يحكي لنا الجاحظ قرايه الـ ٢١ نادرة وطرفة بين قصص وأحاديث

(٥) نسبة إلى مرو الفارسية . (٦) أي لا ينال شيئاً منه في الحالين . (٧) ظاهرة .

كتفا^(١) لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، وتركه . ولو مد يده لكان كافرًا أو لكان قد جعل مع الله - جل ذكره - شيئاً . وليس هذا الحديث لأهل مرو ، ولكنه من شكل الحديث الأول .

* حديث ثمامة :

وقال ثمامة^(٢) : لم أر الديك في بلدة قط ، إلا غيولاً يلقط يأخذ الحبة بمنقاره ، ثم يخلطها قدام الدجاجة إلا ديكاً مرو . فأتيت ديكاً مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب ! قال فعلمت أن يخلطهم شيء في طبع البلاد ، وفي جواهر^(٣) الماء فن ثم عم جميع حيواناتهم :

* ابن رشيد :

فحدثت بهذا الحديث أحمد بن رشيد . فقال : كنت عند شيخ من أهل مرو ، وصبي له صغير يلعب بين يديه ، فقلت له - أما عابثاً أو ممتحناً - : أطعمني من خبزكم قال : لا تريده ، هو مر ! فقلت : فاسقني من مائكم ؟ قال : لا تريده ، هو مالخ ! قلت : هات لي من كذا وكذا ، قال : لا تريده ، هو إلى . فضحك أبوه وقال : ما ذنبنا ؟ هذا من عمله ما تسمع ؟ . يعني أن البخل طبع وفيهم وفي أعراقهم وطنيتهم .

* قصة الخراسانية :

وزعم أصحابنا : أن خراسانية^(٤) ترافقوا في منزل ، وصبروا عن الارتفاق^(٥) بالمصباح ما أمكن الصبر ، ثم أنهم تناهدوا وتخرجوا^(٦) . وأبى واحد منهم أن يعينهم ، وأن يدخل في الغرم معهم ، فكانوا إذا جاء المصباح شدوا عينيه بمنديل ، ولا يزال ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح ، فإذا أطفأوه أطلقوا عينيه .

ورأيت أنا حمارة^(٧) منهم ، زهاء خمسين رجلاً يتغدون على مباقل^(٨) بحضرة قرية الأعراب^(٩) في طريق الكوفة ، وهم حجاج فلم أر من جميع الخمسين رجلين يأكلان معاً ، وهم في ذلك يتقاربون ، يحدث بعضهم بعضاً . وهذا الذي رأيته منهم من غريب ما يتفق للناس .

(١) كله تكيلاً شديداً . (٢) هو ثمامة بن أشرس من زعماء فرقة المعتزلة توفي ٢١٣ هـ .

(٣) جوهر الشيء طبعه واصل تكوينه . (٤) جماعة خراسانية .

(٥) الارتفاق بمعنى الانتفاع . (٦) تناهدوا وتخرجوا : اشتركوا في ثمن زيت المصباح ، وتخرجوا مثله .

(٧) أصحاب حمير . (٨) مباقل جمع مفردا مبقلة وهي ما يوضع عليها البقل .

(٩) مكان في طريق الكوفة العراقية .

* موييس بن عمران :

حدثني موييس بن عمران قال : قال رجل لصاحبه - وكانا إمّا متراملين وإمّا مترافقين - : لِمَ لا نتطاعم فإن يد الله مع الجماعة ؟ وفي الاجتماع البركة ، وما زالوا يقولون : طعام الاثنين يكفي الثلاث ، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة ؟ فقال له صاحبه : لولا أنى أعلم أنك آكل منى لا دخلت لك هذا الكلام فى باب النصيحة . فلما كان الغد ، وأعاد عليه القول ، قال له : يا عبد الله ! معك رغيف ، ومعى رغيف ، ولولا أنك تريد الشر ، ما كان حرصك على مؤاكلتى ! تريد الحديث والمناسة ؟ اجعل الطبق واحداً ويكون رغيف كل منه قدام صاحبه ، وما أشك إذا أكلت رغيفك ونصف رغيف يتجده مباركاً ! إنما كان ينبغي أن أكون أجده أنا ، لا أنت ^(١) .

* خاقان بن صبيح :

وقال خاقان بن صبيح : دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً ، وإذا هو قد أتاننا بمسرجة فيها فتيلة فى غاية الدقة ، وإذا هو قد ألقى فى دهن المسرجة شيئاً من بلح ، وقد علق على عمود المنارة عوداً بخيط ^(٢) ، وقد حز فيه حتى صار فيه مكان للرباط فكان المصباح إذا كان ينطفئ أشخص ^(٣) رأس الفتيلة بذلك ، قال : فقلت له : ما بال العود مربوطاً ؟ قال : هذا عود قد تشرب الدهن ، فإن ضاع ولم يحفظ احتجنا إلى واحد عطشان ، فإن كان هذا دابنا ودأبه ، ضاع من دهنتنا فى الشهر بقدر كفاية ليلة .

قال : فينا أنا اتعجب فى نفسى ، وأسأل الله جل ذكره العافية والستر ، إذا دخل شيخ من أهل مرو ، فنظر إلى العود فقال : يا أبا فلان ! فررت من شىء ووقعت فى شبيه به ! أما تعلم أن الريح والشمس تأخذان من سائر الأشياء ؟ أو ليس قد كان البارحة عند إطفاء السراج أروى وهو عند إسراجك الليلة أعطش ؟ قد كنت أنا جاهلاً مثلك حتى وفقنى الله إلى ما هو أرشد ! أربط - عافاك الله - بدل العود إبرة أو ملسة صغيرة ، وعلى أن العود والخلال والقصبه ربما تعلق بها الشعرة من قطن الفتيلة إذا سويتها بها ، فتشخص معها ^(٤) ، وربما كان ذلك سبباً لانطفاء السراج ، والحديد أملس ، وهو مع ذلك غير نشاف ^(٥) .

(١) أى من مصلحتى ان اجد انا لا أنت رغيفي مباركاً بابتعادك عنه .

(٢) المنارة : ما توضع عليه المسرجة . وعمودها هو الذى تثبت عليه .

(٣) اشخص : رفع ، والمعنى أنه يرفع رأس الفتيلة بالعود المربوط بالخيط .

(٤) أى تخرج معها ، والفاعل يرجع إلى الفتيلة .

(٥) أى لا يمتص الزيت .

قال خاقان : ففي تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس ، وفضل أهل مرو على سائر أهل خراسان .

* مثني بن بشير :

قال مثني بن بشير : دخل أبو عبد الله المروزي على شيخ من أهل خراسان ، وإذا هو قد استصبح في مسرجة خزف^(١) ، من هذه الخزفية الخضر ، فقال له الشيخ : لا يحىء - والله - منك أمر صالح أبداً ، عاتبتك في مسارج الحجارة ، فاعتبتني^(٢) بالخزف ! أو ما علمت أن الخزف والحجارة يحسوان^(٣)؟ قال : جعلت فداك ! دفعتها إلى صديق ليّ دهان فألقاها في المصفاة شهراً حتى رويت من الدهن ربا لا تحتاج معه أبداً إلى شيء قال : ليس هذا أريد ، هذا دواؤة سير ، وقد وقعت^(٤) عليه ، ولكن ما علمت أن موضع النار من المسرجة في طرف الفتيلة لا ينفك من إحراق النار وتجفيفه ، وتنشيف ما فيه ، ومتى ابتل بالدهن وتسقاه ، عادت النار عليه ، فأكلته ، هذا دأبها ، فلو قست ما يتشرب ذلك المكان على الدهن ، بما يستمدده طرف الفتيلة منه ، لعلمت أن ذلك أكثر . وبعد هذا فإن ذلك الموضع من الفتيلة والمسرجة لا يزال سائلاً جارياً . ويقال إنك متى وضعت مسرجه فيها مصباح ، وأخرى لا مصباح فيها لم تلبث إلا ليلة أو ليلتين حتى ترى السفلى ملآنة دهناً^(٥) . واعتبر أيضاً ذلك بالملح الذي يوضع تحت المسرجة والنخالة التي توضع هناك لتسويتها وتصويبها^(٦) ، وكيف تجدهما ينعصران دهنا . وهذا كله خسران وغبن ، لا يتهاون به إلا أصحاب الفساد^(٧) . على أن المفسدين إنما يطعمون الناس ، ويسقون الناس ، وهم على حال يستخلفون شيئاً ، وإن كان روثاً^(٨) ، وأنت إنما تطعم النار وتسقي النار ، ومن أطعم النار جعله الله يوم القيامة طعاماً للنار ! قال الشيخ : فكيف أصنع جعلت المسرجة قال : تتخذ قنديلاً ، فإن الزجاج أحفظ من غيره ، والزجاج لا يعرف الرش ولا النشف ، ولا يقبل الأوساخ التي لا تزول إلا بالدلك الشديد أو بإحراق النار . وأيهما كان فإنه يعيد المسرجة إلى العطش الأول . والزجاج أبقى على الماء والتراب من الذهب الإبريز ، وهو مع ذلك مصنوع ، والذهب مخلوق ، فإن فضله الذهب بالصلابة ،

(١) استضاء بها .

(٣) يشران .

(٢) أزلت عتاي .

(٤) اهتديت .

(٥) يعنى أن المسرجة إذا وضعت فوق أخرى فارغه فإن فتيلة المسرجة العليا ، تسقط الزيت في السفلى ، وبعد مدة تملأ .

(٦) أمالتها ليصل الدهن إلى طرف الفتيلة .

(٧) المرفون .

(٨) أى تبقى منهم مخلفات أيا كانت .